

النص السردي - نحو سيميائيات الجسد

الدكتور: مختار بادي

معهد الآداب واللغات

جامعة بشار

المخلص:

إن الجسد الذي يقدم في الروايات ليس جسدا واقعيا، بل هو تمثيل رمزي للجسد عبر اللغة، وما دمننا قد دخلنا إلى رحاب اللغة فإن باب الاختيار يفتح أمامنا على مصراعيه، فالكاتب يستطيع أن يختار تصورا خاصا للجسد، كأن يجعله وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، ومن ثم يستند إلى مجموعة من الأفكار الإيديولوجية وهذا ما يحدو الكاتب إلى اختيار لغة بعينها تتناسب مع هذا الاختيار. يتضح هذا جليا - في رواية وليمة لأعشاب البحر " للكاتب السوري حيدر حيدر، وروايات " ذاكرة الجسد- فوضى الحواس - عابر سرير " للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي. و" سيدة المقام " للروائي الأعرج واسيني، إنه أكثر الركائز الجمالية لشعرية الخطاب.

مدخل إلى تضاريس الجسد:

يقول النحات جوزف بويس:

" لقد أوجدت نحنًا اجتماعيا وأعطيته بعدا اجتماعيا بعدما أدركت المبدأ التشكيلي المتجلي فيه"⁽¹⁾.

أصبح الجسد كما كان منذ عصر النهضة (بصفة خاصة) - يتبوأ موقعا هاما ضمن اهتمامات المبدعين والنقاد والمحللين في شتى مجالات الإبداع، وانطلاقا من الأهمية التي اكتسبها هذه الموضوعه عَنَّا لنا القيام بحفريات تبتغي من خلالها الكشف عن أسرار الجسد خاصة في المتون السردية.

لعل أكثر العلوم التعبيرية التصاقا بالمظاهر الخارجية للأشياء هي الفينومينولوجيا التي اهتمت بالجسد من حيث اعتباره غلafa ماديا لدواتنا ودليلا لضمان حضورنا في العالم، كما أن نظرية العقد الاجتماعي التي ظهرت وتطورت في القرن السابع عشر (النظرية القائمة على المساواة بين الأفراد وعلى مشاركتهم الحرة في إنتاج نظام سوسير - سياسي) حررت الإنسان من ذاته وأصبح سيذا لجسده ولمكانه بعد أن ظل الإقطاعيون يمارسون هيمنة مطلقة على أجسام الأفتنان ويتمتعون بحق حياتهم وموتهم⁽²⁾.

إن الاعتراف بتحرر الجسد تم بصفة خاصة بعد ظهور المجتمع المدني على يد " سبينوزا - وجون حال روسو - وهويس - " هذا المفهوم الذي لعب دوراً أساسيا في تحرير الأجساد التي صارت تصارع الأجساد

¹ - د. محمود أمهد: الفن التشكيلي المعاصر، التصوير 1870م- 1970م، لبنان 1981م ص 144.

² - الحياة الثقافية (ندوة الجسد والفلسفة) عدد، 66-1993م.

التي تجري عليها الدراسات والتجارب الفيزيائية الرياضية، كما أن النظرة الاقتصادية الليبرالية، بدورها دعمت هذا المفهوم بالتركيز على الجسد البشري كقدرة على الإنتاج.

أما الأبحاث الأدبية والفلسفية التي تناولت بالدرس والتحليل " الجسد " كقضية و كإشكالية فقد أسالت الكثير من الحبر، وزوبعة في دواة النقاد نذكر من بينها على سبيل التمثيل مصنف " ميششيل فوكو " الموسوم: "المراقبة والمعاقبة " الصادر عام 1975م. والذي بين فيه الإجراءات القمعية والسلطوية التي تمارسها بعض الأنظمة على الجسد لإرغامه على نهج سلوك معين يسوده الامتثال والانضباط، وفي مؤلف آخر لنفس الرجل " فوكو " محتفى بـ: " تاريخ الجنون في العهد الكلاسيكي " صدر قبل الكتاب السابق بأربعة عشر سنة 1961م " يشخص المجنون بذلك الذي يأتي جسده بأشياء مخالفة للمألوف، أو بذلك الذي لم يعد جسده منتجا.

لكن في المنجز السيميولوجي نلفي الجسد بناء رمزيا انطلاقا من تعبيره عن تمثيلاتنا السيكولوجية والثقافية. أو نتيجة إنتاج تاريخي وثقافي في إيديولوجي ولا يماري عاقل في أن حضارة الصورة (أعني حضارة الجسد) ذلك الجسد المثالي المغالي الذي ينبغي أن نرغب فيه إلى درجة الاستيلاّب في رغبة ليست رغبتنا أصلا وهذه الموضوعة لفتت انتباه رولان بازط، وهو يدرس سيميائية جسد الإشهارة، وخرج بنتيجة مؤداها أن عارضة الأزياء - أو عارضة الجسد - لا تعوض جسدها حقا ولا جمالها وإنما شكلا محضا أو نموذجيا ضبطه بصفة مسبقة ومجردة حيث ينحل المحسوس في الدال كما يقول.

إن لغة الجسد، تعد من جانب لغة عالمية بإمكانها سد فوارق ثقافية
لا فضل لعربي على عجمي أو العكس إلا بالفحولة، لقد اقتطفنا العبارة
السابقة من كتاب " الاستشراق جنساي " (تذكير الأنا وتأييث الآخر)⁽³⁾،
للكاتب التركي " إرفن جميل شك " والذي نقله إلى العربية " عدنان حسن "
وقدم له الشاعر الراحل " ممدوح عدوان " حيث سعى صاحب الكتاب إلى
تظهير الرؤية الغربية إلى الشرق في ملمح أساس من ملامح الاستشراق هو
الملمح الجنسي إذ استنفر الغرب الأوربي كل ما يمتلكه من وسائل وتقنيات -
علمية وفكرية متطورة من أجل التشديد على حقه في غزو " الآخر " الشرقي
ما دام هذا الآخر متخلفا وراكدا وغير قابل للتطور. كان لا بد تبعا لذلك من
إقامة كل أشكال التمييز بين " الأنا " الأوربية والآخر الهجمي والبربري
وهو تميز يتصل بالحضارة والثقافة والقدرات العقلية كما يتصل بالجنس
والجسد وما يحيط بهما من طقوس واستيهامات وأحلام. فلسفتهم أن كل
ما هو خارج عن الفضاء الأوربي يعتبر غريبا وغامضا وينبغي استكشافه
وسبر غوره: عالم يصور بأناس غير أسوياء، هم في أمس الحاجة إلى إعادة
تأهيل وركوب موجة التطور حتى عن طريق الإكراه الذي لا محجة تؤدي
إليه سوى الاستعمار والغزو بجميع أشكاله.

الإيديولوجيا الجنساوية " L'ideologie Sexiste "

إن البعد الجنسي للإيروتيكي جسده الرحالة الغربيون كما لاحظت
الباحثة " أليسون بلنيت " أن كتاب الرحلات في القرن التاسع عشر استخدموا
في أغلب الأحيان الصور والاستعارات الجنسية التي تنم عن المنزلة

³ - إرفن جميل شك: الاستشراق جنسيا 02: تذكير الأناة تأنيث الآخر - ترجمة عدنان حسن - اتحاد الكتاب العرب - دمشق - سورية، المقدمة.

الذكورية القاعة للمستكشفين الأوائل بغية فتح العوالم الخطيرة المجهولة واختراق البلدان التي توزع خصوصيتها بالتساوي بين الأرض والنساء. فالأرض هناك " عذراء وشرسة " والمستعمر ذكر فحل وعاشق مرغوب بحماسة ومروض لجموح النساء الأصليات. أما أهل الأرض (الأهالي) من الذكور فهم إما مغتصبون حيوانيون أو مخنثون غيّنون رجولتهم غير مكتملة. مما يحول الفاتح الغربي إلى منقذ أو مخلص .

أما الباحث " إيرك ليد" فيرى أن اقتصار الرحالة والمستكشفين الغربيين على الرجال من دون النساء هو الدلالة الأبرز على فحولة الغرب وشعوره بذلك على الأقل من دون النساء هو الدلالة الأبرز على فحولة الغرب أو شعوره بذلك على الأقل " فالأماكن الموطوءة تصبح امتصاصا للغريب الشاب داخل أرض مؤنثة متأصلة " .

لكن هذه النظرة إلى الشرق لم تتولد من مجرد رغبة البلد " الفاتح " في تأنيث الآخر المفتوح، بل غذتها بقدر أو بآخر الجغرافيا المتصلة بالصحاري اللاهبة للأجساد السمر المفلوجة بوهج الشمس، كما زودتها بدماء جديدة التراجم والمؤلفات التي تزخر بالإثارة والمتبلات الشبقية الحادة كما يحده في تضاعيف "ألف ليلة وليلة" هذه الضفيرة ساهمت كما ذهب إليه "ميشيل فوفكو " في تبيان الخيط الأبيض من الأسود من ألُّهنا والهُنَّاك، عن طريق الاختلافات المضخمة والمدفوعة إلى حدودها القصوى بين " أنا " الغرب المتطاوس النرجسي المعجب بإنجازاته وتقدمه الفكري والتقني وبين آخر لايمكنه بأية حال من الأحوال أن يعرب عن أناه كما يجب، إنما يُنظر إليه بصفته عالم الحريم والمخصيين والراقصات والمحظيات والحمامات العامة وأسواق الرقيق والنخاسة والعجائبية التي يَعج عالم ألف ليلة وليلة. وكل هذه الروافد تصب في محيط الضرورات السياسية والإيديولوجية.

إن الشرق لم يرد التحية بمثلها للغرب المتباهي بفحولته حيث أن الذكورة الغربية تجد في حضورها المادي والجسدي المباشر في الشرق وعالمه السحري ما يشفي غليلها ويجعلها بنجوة عن رصف الأدلة والبراهين الرمزية الأخرى، لأن الأسباب تكمن في أن الذكورة الشرقية المهيمنة على المستويات السياسية والعسكرية والثقافية لا تجد من يمد لها يد العون وهي تخوض معرفة إثبات وجودها عدا فحولتها الجنسية والغرائزية الصرف.

لقد شعر الكتاب المستشرقون وهم يخوضون هذه المعركة بالذات بأن الله تغمدهم برحمته وشملهم بعنايته، حيث حققت أجسادهم بالمتبالات والبهارات وكل ما يمت بصلة للشهوة والشبقية من قريب أو بعيد في جغرافيا الحضور الشمسي، ولم يتركوا لخصومهم الغربيين سوى أجساد مخنثة وباردة كالتلج الذي يحيق بهم من كل الجهات. إن مؤلف "شرق / غرب، ذكور وأنوثة" للكاتب السوري "جورج طرابيشي" يعتبر التعبير الأمثل عن انقلاب السحر على الساحر من وجهة نظر شرقية، كما نلفي الكاتب السوداني "الطيب صالح" في موسم الهجرة إلى الشمال يحمل بطله مصطفى سعيد على مقاومة شعوره بالهامشية والضعف إزاء الغرب من طريف فحولته المشرقية التي تحول الغرب إلى موطن أنثوي، نفس الوتر عزف عليه توفيق الحليم في "عصفور من الشرق" ومواطنه "سهيل إدريس" في "الحي اللاتيني".

في عملية الكر والفر هذه، والصراع الأبدي بين شقي الأرض المتناحرين لا يسمع المرء أن يسجل أي فضل لغربي على أعجمي، أو العكس إلا بالفحولة.

النص السردي نحو سيمييات للجسد:

ليس الجسد في التصور الإنساني جسدتً واحداً، إذ تتفاوت في تمثيله حين نصوغه أو نعبر عنه في الفن والأدب، أو حتى حين نحاول أن نتأمله بوصفه ظاهرة، ومن ثم يصح أن نقول إنه جسد متعدد، أو بالأحرى نقول تأثراً بالروح الصوفي - إنه " جسد اعتقادات " .

إن الجسد الذي يقدم في الروايات ليس جسداً واقعياً، بل هو تمثيل رمزي للجسد عبر اللغة، وما دمنا قد دخلنا إلى رحاب اللغة فإن باب الاختيار يفتح أمامنا على مصراعيه، فالكاتب يستطيع أن يختار تصورا خاصا للجسد، كأن يجعله وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، ومن ثم يستند إلى مجموعة من الأفكار الإيديولوجية وهذا ما يحدو الكاتب إلى اختيار لغة بعينها تتناسب مع هذا الاختيار يتضح هذا جليا - في رواية وليمة لأعشاب البحر " للكاتب السوري حيدر حيدر، وروايات " ذاكرة الجسد - فوضى الحواس - عابر سرير " للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي. و" سيدة المقام " للروائي الأعرج واسيني.

وقد ينشغل الكاتب بالجسد بوصفه وسيلة للتعبير عن العلاقات الوجودية بالكون والآخر، وربما يستند إلى مصادر عرفانية تؤدي من ثم إلى الإفادة من اللغة في جانبها العرفاني، وهذا ما يتجلى في رواية " التبر " للكاتب الليبي إبراهيم الكوني، وقد يحرص الكاتب على الاعتماد على الميثولوجيا في بناء نصه، ومن ثم يكون الجسد معتمدا على لغة خاصة تمتح من الأدب العجائبي، مثلما حدث لدى عزت القمحاوي في روايته " مدينة اللذة " .

لقد شهدت السنوات الأخيرة اهتماما من جانب الباحثين العرب بالجسد على نحو خاص، ولكنه على أية حال ضئيل، إذا ما قورن بالولع الشديد بالجسد في الروايات العربية في القرون الأخيرة، ومن الدراسات الجادة الجديدة في هذا السياق دراسة الباحثة التونسية " عروسية النالوتي " حول " تمثلات الجسد من خلال الرواية التونسية المعاصرة " (4)

تناولت في الفصل الأول: استعارات الجسد، والثاني جسد الاستعارات، وتحت " استعارات الجسد " تعرض الباحثة موضوعين، أولهما: نسبة حضور الجسد في الروايات وسلم تراتب أجزائه، وثانيهما: تمثلات الجسد الذكوري والأنثوي ومرجعياتها، وتحت " جسد الاستعارات " تعرض موضوعين هما تمثلات الجسد اللغوي، والنص الأدبي بوصفه جسدا لغويا. ومن الدراسات كذلك ما يهتم بفكرة جزئية يتم تتبعها في سياق بعينه، وهذا ما قام بن " إلهام سليم " في بحثها المحققي " مفهوم الجسد عند بلزال " (5).

وفيه ترى الباحثة أن " بلزاك " كان مشغولا ببعض الموضوعات الفلسفية التي تجلب في كتاباته، ومن هذه الموضوعات استتزاز الطاقة الجسدية، حيث تشير الكاتبة إلى تبني بلزاك فكرة أن الطاقة الجسدية التي يزود بها الإنسان محدودة، ومن ثم فإن عليه أن يستثمرها الاستثمار

⁴ - عروسية النالوتي: قراءة في تمثلات الجسد من خلال الرواية التونسية المعاصرة، سبتمبر 1993م، بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة تونس الأولى، لنيل شهادة الكفاءة، إشراف: حمادي صمود.

⁵ - إلهام سليم: مفهوم الجسد عند هونوريه دي بلزاك: قراءة في رواية الجلد المسحور، مجلة الدراسات العربية، بيروت، عدد 07- مايو 1990م.

الأمثل، حيث إن الحياة الكثيفة المفعمة بالفعل الجسدي والتأمل الفكري والشعور المفعم بالحيوية محكوم عليها بالنهاية السريعة.

هذه الفكرة تتبعها الكاتبة في إبداعات " بلزاك " مركزة على رواية الجلد المسحور " **La Peau du chagrin** " 1830م.

لقد تجرد الكاتب " معجب الزهواني " وهو يتوسل بخصوصية الرواية العربية من خلال فحص التعبير عن الجسد، كونه - أي الجسد - ركيذة الخطاب الثقافي العام في مؤلفه المعنون " تمثلات الجسد في نماذج من الرواية العربية المعاصرة " (6)، منقبا في ثلاث روايات هي:

" ذاكرة الجسد " لأحلام مستغانمي، و" نجمة أغسطس " لصنع الله إبراهيم، و " نزيف الحجر " لإبراهيم الكوني. هذه الحفريات التي قام بها في هذا المتون أسفرت عن أنها تقدم تمثيلات محددة للجسد فرواية " أحلام مستغانمي " تقدم تمثيلا للجسد الثقافي الاجتماعي، أما رواية " صنع الله إبراهيم " تمثيلا للجسد الفردي المستقل عن كون المجتمع، أما رواية إبراهيم الكوني " فتقدم تمثيلا للجسد الطبيعي الكوني. وكانت سلال فاكهة عملية التنقيب تلك أن الدرس النقدي - في موضوعة الجسد - بضاعته مجزاة لسببين:

أ- محدودية المجال النصي.

ب- إنه بحثي جديد لا يزال ينتظر من يفترع عذريته، نظرا لعتمته وإشكاليته.

⁶ - معجب الزهواني: تمثلات الجسد في نماذج من الرواية العربية المعاصرة، مجلة فصول، مج 16- عدد 04 ربيع 1998م.

كما أن الباحثة " نعمة خالد " نحت نفس المنحى " المعجب الزهواني - وهي من المهمات بالنقد النسوي - في ورقة قدمتها في فعاليات مؤتمر "مرور مائة عام على تحرير المرأة العربية " الذي التأم بالقاهرة في أكتوبر 1998م تعرضت فيها إلى " تمثيلات الجسد " نبيل سليمان نموذجاً من خلال ثلاث روايات.

إننا لا نكاد نعثر في خطابنا النقدي حول الرواية على اهتمام له خطره في صُورهِ المتعددة، ولنفترض جدلاً أن الجسد أثار الاهتمام، فغالبا ما نلفيه اهتماما مختزلاً في صورة من صورهِ، هي صورة - الجسد الرغبوي الشهوي - الخاص بالمرأة تحديداً، والذي يقدم في صورة عراجين من الشهوة والشبقية تسيل لعاب القارئ الصلصال، وهذه النتيجة توصل إليها " معجب الزهواني " في الدراسة السابقة، حيث ترد تلك الكنايات في سياق النظر في " حركة تحرير المرأة " أو " النقد النسوي " أو " نقد الإيديولوجيا الأبوية " في الثقافة العربية.

ومن الدراسات الجادة في هذا الاتجاه نشير إلى دراسة الناقد السوري " جورج طرابيشي " المعنونة " شرق وغرب؛ رجولة وأنوثة " ودراسة الباحث السعودي " عبد الله الغدامي " الموسومة " المرأة واللغة " إضافة إلى دراسة لمجموعة من الباحثين والباحثات تحت عنوان " الجسد الأنثوي " نشرت في عام 1991م بالدار البيضاء.

إن الجسد يقوم بدور شديد الفعالية في خلق النص وتأويله، إلا أنه لم يحظ بالعناية الكافية في الأبحاث النقدية المستشهد بها سابقاً.

صورة الخطاب المتعلق بالجسد:

إن دراسة الجسد في الرواية العربية المعاصرة، يفترض معها ابتداء أنها تتطلق من منظور " Perspective " حديث لا يُشغل من الجسد بهيئته

الخارجية وما يتعلق به من أغراض، بل يشغل به بوصفه تمثيلاً تخيالياً لا يستقر على حالة واحدة بل هو كل لحظة في شأن.

إن الجسد ليس شيئاً تمتلكه، بل هو علامة على كينونتنا، فيه ومن خلاله نتعرف وجودنا في العالم⁽⁷⁾.

تحتاج كل القطاعات التراثية الثقافية العربية المختلفة إلى أن يدرس فيها مفهوم الجسد دراسة متعمقة، بوصف ذلك المفهوم جوهرياً في فهم الوعي واللاوعي الجمعي لدى العرب⁽⁸⁾.

كما ينبغي قراءة النصوص قراءة عمودية، والوقوف على ما تحبل به من دلالات، وعدم إغفال المسكوت عنه منها " Le Non- dit " كالأيقونات سواء أكانت رسماً أو نحتاً أو غيرهما. ضف إلى ذلك حتمية دراسة النصوص المكتوبة وغير المكتوبة، والإفادة من الإبداعات الشعبية، وإخضاع النصوص العربية لعملية فحص دقيقة لفهم طرائق العرب في التعبير الإيمائي للجسد⁽⁹⁾.

الجسد في الخطاب الروائي المعاصر:

تتبدى مركزية الجسد في الخطاب المعاصر في ذلك الاهتمام الكبير به في المعرفية المختلفة على نحو لافت، فهناك اهتمام كبير به في الخطاب النفسي والاجتماعي والفلسفي والبيولوجي والإثنولوجي والاقتصادي والتربوي والأنثروبولوجي.... فضلاً عن الخطاب النقدي. ويشير إلى ذلك

⁷ - انظر : Jonathan Millere. The Body in question, Jonathan cape, London, 1978, P.14

⁸ - علي زيعور: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت. الطبعة الأولى عام 1991 م - ص 112.

⁹ - يمكن الباحث أن يقيد في هذا السياق، من فقه اللغة، مثل فقه اللغة للشعالبي ولسان العرب لابن منظور نظر لما يحتويانه من نصوص حاسمة.

أحد الباحثين بقوله إن حساسية ما بعد الحداثة تكشف عن تحول عن المعرفة إلى الخبرة، وعن النظرية إلى الممارسة، وعن العقل إلى الجسد (10). ويلاحظ في مختلف الخطابات أمران، أولهما الحرص على بحث الجسد في الجذور المعرفية داخل كل حقل معرفي، والآخر تداخل الخطابات المختلفة المتعلقة بالجسد.

فإذا كانت الفلسفة الظاهرانية - في بعض تصوراتها - ترى الجسد مركزا للوجود من حيث إنه يمكن إدراك العالم كما يمكن به إدراكنا لذواتنا، فإن السيميولوجيا - " **Semiologie** " - في بعض تصوراتها - ترى العلاقات الاجتماعية علاقات بين أجساد أساسا. وإذا كان علم التشريح ووظائف الأعضاء والوراثة تجعل الجسد محور اهتمامها، فإن العلوم الإنسانية تحرص على أن تأخذ نتائج تلك العلوم للتحرك إلى أبعد منها، نظرا لافتقار هذه العلوم إلى بعض الأدوات التصويرية الخاصة، ولبقائها في حدود المعرفة التجريبية الضيقة (11).

يمكن القول إن الفلسفات القديمة - حتى الأرسطية التي تجعل النفس صورة لجسم عضوي يملك الحياة بالقوة - لم تعترف للجسد بقيمة مقابلة أو مكملة للنفس. وحتى الفلسفة الديكارتية لا تعده أكثر من آلة تحتاج إلى اكتشاف قوانينها، في مقابل النفس التي تمثل وحدها الذات.

وهكذا فإن معظم الفلسفات حتى ديكارت تنطق من ثنائية تجعل النفس والجسم جوهرين متميزين، أما سبينوزا فإنه يراها صفتين مختلفتين

¹⁰ - انظر: Roy Boyne: The art of the Bdy in the discourse of Postmodernity in Mike Featherstone and others (ed): The Body, Sage publications, London, 1991, P. 281.

¹¹ - جلال الدين سعيد: فلسفة الجسد، دار أمية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، عام 1993م، ص 05 وما بعدها.

لجوهر واحد هو الله، فهما شيء واحد يتصور تارة من جهة صفة الفكر، وأخرى من جهة صفة الامتداد⁽¹²⁾.

ويبدو أن التفكير الفلسفي في الجسد قد وقع بين شقي رحى النظرة الثنائية والنظرة الواحدية، حيث كانت النظرة الثنائية غالبا ما تقابل برفض تال من الفلاسفة يرى في النفس والجسد شيئا واحدا، وربما كانت الظاهراتية أول فلسفة تربط ربطا وثيقا بين الجسد والنفس، على أساس أن الجسد الظاهراتي ليس مجرد موضوع من موضوعات العلم، ولا هو أداة من أدوات الشعور والوعي، بل على أساس أنه الأول والأصل، وأنه جسد معيش يقتضي كل سلوك له وكل وظيفة من وظائف إدراكا لمعنى ما وموقفا إزاء المحيط الذي يوجد فيه.

أما اهتمام الاجتماع بالجسد فيكاد ينحصر في الاهتمام به بوصفه كيانا عضويا (كما في نظرية بارسونز عن الفعل الاجتماعي) كيانا معبرا عن الحاجة والطبيعة (كما في نظرية ماركس) أو كيانا حاملا للذات (كما في التفاعلية الرمزية) أو كيانا حاملا لطاقة الرغبة (كما في الفرويدية) ويبدو أن المشكلة التي تبلور علم الاجتماع حولها هي مشكلة التحكم في الجسد وضبطه، فكل مجتمع تواجهه مهمات أربع:

- 1- إعادة إنتاج سكانه عبر الوقت.
- 2- التحكم في أجساد سكانه عبر المكان.
- 3- كبح الجسد الداخلي (الرغبات) من خلال النظم.
- 4- حضور الجسد الخارجي في الحيز الاجتماعي.

¹² - فلسفة الجسد: مرجع سابق. ص 12.

وفي ضوء هذه المهمات لا تكون عملية تنظيم المجتمع سوى تنظيم للأجساد -داخليا وخارجيا - عبر الزمان والمكان، ومن ثم فإن تحليل هذه الأبعاد الأربعة يفتح الباب أمامنا مباشرة إلى تحليل نظم المجتمع وإيديولوجياته⁽¹³⁾.

إن الجسم صدى للتاريخ والمجتمع؛ فعاداته وقوانينه وأمراضه لا تفسرها الفيسيولوجيا وحدها، ولا ينفع فيها الطب الجسدي وبالأحرى النفسي. إنها غارقة في التاريخ، مشدودة إلى السياسة. فسوء التنفس والتغذية، ووهن الجسم وخَوْرُهُ وحتى شحوبه ونحافته- لا تعود بالضرورة إلى الطب والفسيولوجيا، إنها لا تجد تفسيرها إلا في القيم الأخلاقية والسياسية التي غرسها المجتمع، واقتضاها النظام، وألزمها التاريخ⁽¹⁴⁾.

وإذا كان الجسد حسب عبارة "ميرلو بونتي"، هو "المنظومة الرمزية العامة للعالم"، فإن المجتمع الذي ينحت رموزه فيه عن طريق المؤسسات التربوية المختلفة التي تجعل من أجساد الأفراد أجسادا خاضعة مطيعة. ويمكن القول بأن مجتمع يطبع قوانينه في جسد المواطنين، لكن ذلك يتم بطرق مختلفة باختلاف المجتمعات البدائية كانت لا تزال تطبع علامات خاصة على أجساد أفرادها الذين ينتقلون من سن المراهقة إلى سن الرشد، وهذه العلامات تتمثل في جروح وندبات يتعذر محوها، وهي تقوم بدور "الذاكرة الاجتماعية" وتجعل كل فرد لا ينسى حدوده ووضعه بوصفه فردا ينتهي إلى جماعة ما.

13 - أحمد زايد: الجسد والمجتمع؛ استكشافات في النظرية الاجتماعية - مجلة إيداع عدد 9، سبتمبر 1997م.

14 - عبد السلام بن عبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الطبعة الأولى 1994م، الدار البيضاء المغرب، ص 116.

صحيح أن مجتمعاتنا المتحضرة، لم تعد تعتمد إلى مثل هذه الممارسات البدائية، لكن لها طرقا ووسائل أخرى أنجع من الطرق القديمة. فمنذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أصبح الهدف المنشود للمجتمعات الغربية - في المدرسة وفي العمل وفي الجيش ... إلخ - هو الحصول على أجساد طيبة منقادة قابلة للاستعمال والتحويل والإكمال.

الغاية إذن تحقيق نوع من " التشريح السياسي للجسد " يسمح يجعله ينتج أكثر وأحسن، كما يسمح في الوقت نفسه بإخضاعه للسلطات القائمة والفئات الحاكمة، لقد أصبحت هذه الأخيرة تثبت قيمها في الأوساط الشعبية وتروجها بطرق خفية مستترة، لأنها طرق تقوم على مظاهرة أكثر ديمقراطية، إن صح التعبير، بمعنى أن ترويض الجسد والفرد أصبح يتحقق عن طريق مؤسسات متنوعة كالمدارس والمعاهد وكنكات الجيش والمصانع والمعامل والمستشفيات ... إلخ. إن الغاية القصوى من هذا الجهاز الذي سماه " ميشال فوكو " "بميكروفيزيا السلطة " حصر الجسد في بعد واحد هو البعد الإنتاجي بحيث يصبح الإنسان الآلي أحسن نموذج للجسد، ولنا في فيلم " العصور الحديثة " " لشارلي شابلن " أصدق صورة لذلك. و بالإضافة إلى هذا البعد الأدبي والإنتاجي للجسد لن يغيب عنا بعده الاستهلاكي، لاسيما أن الجسد في المجتمع الغربي المعاصر يمثل قوة عمل ورأس مال حي، كما أنه تميمة من جهة كونه موضوع استهلاك.

لقد بين عالم الاجتماع " ج. بودريار " أننا نعيش في عصرنا هذا ظاهرة جديدة تتمثل في المنزلة التي أصبحت عليها الأشياء التي نستهلكها، أي أن هذه الأشياء لم تعد ذات قيمة تبادلية وذات قيمة استعمالية فحسب، بل أصبح أيضا فيه قيمة اجتماعية رمزية، وأصبحت بمثابة علامات أو إشارات يحفل بها مجتمع الاستهلاك المعاصر. ومن هذا المنظور لا يكون الشيء المبهم

حقاً في هذا المجتمع استهلاك أشياء لأجل استهلاكها من جهة كونها علامات تميز الأفراد بعضهم عن بعض، وتضع حدوداً بين الفئات الاجتماعية. هذه الأشياء هي إذن علامات وظيفية، ويمكن القول مع " بودريار " أننا أصبحنا لا نستهلك أشياء بقدر ما نستهلك علامات ورموزاً وعلى هذا فإن الجسد يجد نفسه وسط خضم من العلامات والرموز التي يفرزها المجتمع، وهي تحوله هو الآخر إلى شبكة من العلامات والرموز⁽¹⁵⁾.

ويمكن القول إن هناك طريقتين متباعتين - في الظاهر - يعكسان رؤى الحداثة تجاه جسد الإنسان؛ الطريق الأول طريق الشك في الجسد وأبعاده نظراً لهشاشته، والثانية طريق خلاص الجسد عبر تمجيده، وصياغة مظهره ومحاولة تحقيق أفضل صور الإغراء له، والهوس بالشكل والرفاهة والإبقاء على الشباب وفي الحالتين تم فصل الجسد عن الإنسان. وهكذا نلاحظ " الصيغة الحديثة للتثنائية تعارض بين الإنسان وجسده، وليس بين النفس أو الروح والجسد كما كان الحال في الماضي⁽¹⁶⁾.

ويكشف موقف الحداثة من الإعاقة الجسدية عن موقف مرتبك من الإنسان؛ فالحداثة تحتفي بقوة الفرد، ومن ثم فإن المعوق يصبح في نظرها مربكاً لتلك الرؤية، لأن " الإنسان المعوق يذكر بهشاشة الوضع البشري التي يصعب الدفاع عنها، وهذا ما يرفض الحداثة بإصرار أن تدركه⁽¹⁷⁾.

¹⁵ - جلال الدين سعيد - فلسفة الجسد - مرجع، ص 95-97.

¹⁶ - دافيد لوبروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة: محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1993م، ص 222.

¹⁷ - المرجع نفسه، ص 137.

تم ارتباك آخر في رؤية الحداثة يتعلق بخطاب تحرير الجسد، فمن ناحية هناك اهتمام بالتعبير عن الجسد واحتياجاته، والسماح بتعريفه في بعض السباقات، ولكن الجسد - في مقابل ذلك - ينحو أن يتزايد التزامه بالقواعد الاجتماعية، كما تتناقص فرص المشاركة الجماعية الحميمة التي كانت متاحة في الماضي في الكرنفال على سبيل المثال؛ " فالمفهوم الحديث للجسد هو نتيجة للبنية الفردية للميدان الاجتماعي، ونتيجة لانقطاع التضامن الذي يمزج الشخص بالجماعي وبالكون عبر نسيج من الاتصالات التي يستقيم بها كل شيء " (18).

هذا كله يعني أن هناك إحساساً قوياً بحضور الجسد، بدون أن يصبح جزءاً من العالم كما هو الحال في المجتمعات البدائية، ومن ثم فإنه يصبح ثقيلًا في سياقات كثيرة - بهذا المعنى يمكن القول إن " تحرر الجسد لن يكون فعلياً إلا عندما سيختفي هَمُّ الجسد (19).

الجسد في عالم الأدب & استعارات الجسد & جسد الاستعارات

حينما ندخل إلى عالم الأدب والنقد، فإننا نشغل من الجسد بمستوى التعبير حيث إن الجسد في الحياة إنما هو مَعْبَرٌ عن نفسه مَعْبَرٌ عنه في آن، أي أنه علامة الإنسان أو الدال والمدلول في صعيد واحد. وحين نتواصل مع الأداء الأدبي يكون علينا أن نتأمل مستوى أبع هو التعبير عن العلامة ذاتها، فالجسد - كما يقول ميرلو بونتي - موطن ظهور التعبير، كما أن كل استعمال للجسد إنما هو تعبير أصلي وأولي (20)، ومن ثم فإن استعمال الجسد في الأدب إنما هو تعبير ثانوي.

18 - المرجع نفسه، ص 137.

19 - المرجع نفسه، ص 14.

20 - فلسفة الجسد: مرجع سابق، ص 22.

إن العلوم تدرس الجسد بوصفه ظاهرة حاملة لما هو بشري، وتتجاوز الخطابات الإنسانية ذلك إذ تدرس الجسد بوصفه وجوداً في العالم منظوراً إليه بوصفه كيانا جسيا ونفسيا، يرتبط بعلاقات اجتماعية. و يتحرك الخطاب النقدي خطوة أخرى إذ يدرس ذلك الجسد المتعين بوصفه قد تم التعبير عنه جماليا عبر الخطاب الأدبي.

هناك إذن جسد عضوي، وهناك جسد اجتماعي و معيش، وهناك جسد متخيل أو جمالي.

عند الحديث عن الجسد داخل النصوص- وهذا يكون أكثر وضوحا في التأمل التأويلي - إنما يكون الكلام عنه بوصفه جسداً تم ترميزه، أو بوصفه علامة ذات معانٍ متعددة، ومن ثم فإن ما نستطيع أن نعرفه عن الجسد ليس سوى تمثيلاتنا له⁽²¹⁾.

وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا يهتمون بالكيفية التي يمكن لنا بها أن ننظم مكان معيشتنا سواء على المستوى الخاص (البيوت التي تقوم ببنائها ونعيش فيها.... إلخ)، وعلى المستوى العام (العمارة ومكان العمل ... إلخ) فإن الأدب (وخصوصا المسرح) يأتي ليفيد من هذه الشفرات السلوكية بالنسبة للمكان، على درجة أنها تفيد في قيامها بدور دينامي مهم في تنظيم الحدود بين المتفرج والمؤدي، وهذا يؤثر كذلك في إنتاج المعنى في سياق عرض ما⁽²²⁾.

21 - انظر: Donne Wetton (ed): Body and Flesh, Blackwell, Oxford, 1998, P.4.

22 - انظر: جورج سافونا وإلين ستون: المسرح والعلامات، ترجمة، سباعي السيد: س مسرح، عدد 13، أكاديمية الفنون، الطبعة الأولى، ص 159.

إن الجسد في الأدب يتميز بأنه يتجلى من خلال الجدل بين الطبيعة والثقافة وهنا يأتي دور البروكسيما (أو البونيه أو علم البون أو علم المسافة (proxemics) وهو العلم الذي يدرس أساسا المسافة بين شخصين أو أكثر، وواضع أسسه هو الأمريكي إدوارد هول Edward Hall. يميز هول بين ثلاثة أصناف بونية رئيسية، وهي المقوم الثابت Fixed Feature، ويشمل التشكلات المعمارية، والمقوم شبه الثابت، Semi Fixed Feature، ويشمل الوحدات القابلة للتحرك كالأثاث والإضاءة والأدوات المستخدمة يوميا... إلخ والمقوم غير الشكلي Feature Informal، ويشمل علاقات البعد والقرب بين الأفراد، وقد قسم "هول" المسافات إلى أربع؛ هي: المسافة " الحميمة " (Intimacy)، (الاحتكاك الجسدي وأوضاع اللمس عن قرب) والمسافة " الشخصية " Personality (1.5 - 4 أقدام) والمسافة " الاجتماعية " Soliality (4-12 قدما) والمسافة " العلنية " Publicness (12-25 قدما)، وينقسم هذا التدرج كذلك إلى "قريبة" و"بعيدة" لينتج عن ذلك ثماني درجات تعمل لقياس جدلية حوار الجسد مع الجسد(23).

لكن تلك العلاقات يجب قراءتها في سياقها الخاص، فالحميمية تدل على علاقة قوية إما أن تكون إيجابية (الحب، والعلاقات الحميمة)، وإما أن تكون سلبية (العنف والعدوانية).

²³ - كير إيلام: سيمياء المسرح والدراما، ترجمة: رثيف كرم، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة الأولى 1992م، ص 102.

إن الحميمية في حد ذاتها تحمل تناقضا؛ فهي علامة غامضة إلى حد بعيد، ولا يُكشف عن غموضها إلا إذا كان هناك أسباب أو علامات أخرى توجه التفسير⁽²⁴⁾.

ويلتفت " إدوارد هول " إلى أهمية الكينزياء من خلال علاقتها بالتقاطع الثقافي، وما يمكن أن ينشأ من سوء فهم بين أصحاب الثقافات المختلفة، بسبب الجهل بالتعبير الجسدي لدى الآخر، ومن الطريف أن " إدوارد هول " يخص اليابان والعالم العربي معا بفضل من أحد أبحاثه الرائدة، سماه " العلاقات البونية في سياق التقاطع الثقافي. اليابان والعالم العربي "؛ يتعرض فيه - فيما يتعلق بالعالم العربي - للسلوك العام ولمفاهيم الخصوصية، والمسافات الشخصية، وطرق التعبير بالوجه عند تلاقحها⁽²⁵⁾.

تعد حركة الجسد بوصفها وسيطا اتصاليا موضوع علم (أمريكي أساسا) معاصر للبونية تقريبا وهو " الكينزياء " أو علم التعبير بالجسد " Kinesics "؛ وهو العلم الذي يدرس الجسد وسيطا تواصليا، ويعد عالم الانثربولوجيا الأمريكي " راي بيردويستل " " Ray Birdwhistell " أهم رواده.

وقد اكتشفت " الكينزياء " أن كل ثقافة تختار من مادة الحركات الممكنة عددا محدودا. فمن بين عشرين ألفا من تعبيرات الوجه قد يوجد - تبعا لرأي الباحثين - اثنان وثلاثون حركة منها فقط يجري استخدامها

²⁴ - انظر : Edward T.halli : The silent Language. Fawcett World Library New York. 1959, P. 9-13.

²⁵ - انظر : Edward T.halli : The Hidden dimension Anchor Booke. New York 1969, P. 23-40.

حاليا في السلوك الكينزي الأمريكي. وقد سمي " بيردوبستل " هذه الوحدات المميزة وحدات التعبير الجسدية (Kinemes) واستطاع أن يبين منها خمسين أو ستين وحدة تعمل في النسق الأمريكي تضاف إلى تعبيرات الوجه، منها ثلاث هزات للرأس، وحركتا ميل جانبيتان للرأس، وواحدة لشنق الرأس، وواحدة لتتكيس الرأس وحركات الحاجب والجفون والأنف والفم والذقن والوجنتين... إلخ. و تتركب من هذه الوحدات وحدات أكثر تعقيدا هي أشكال الحركة (Kinemorphs) التي يمكن أن يتركب أن هناك علاقات بين مركبات أشكال الحركة (Complex Kinemorphic Constructions) تشابه العلاقات في الجملة النحوية اللفظية⁽²⁶⁾.

إن السلوك الكينزي وكذلك السلوك البوني - فيما يرى باحث آخر هو " رونالد أرجيلاندر " - ليسا سوى وسيلتين من وسائل التواصل الإنساني، ومن ثم فإن لهما قواعد ملتزمة، ولكن هذه القواعد تتميز بأنها غير ظاهرة على السطح بل تبقى مختفية⁽²⁷⁾.

ويبدو أن الكينزيانيين يربطون بين الأصل البيولوجي للغة المنوطة وللتعبير بالجسد. فيشيرون إلى أن كل شيء عالمي عادة ما يكون بيولوجيا وليس حضاريا. وكذلك الكينزياء فإن من الظاهر أنها تقع في مكان ما بين البيولوجي والأنثروبولوجي. إنها نظام اتصال، أو نظام تواصل، وبعض عناصر هذا النظام يختلف من حضارة إلى أخرى. وهم يمثلون لذلك بسلوك التحية في بعض وجوهه، وبعض الأوضاع والإيماءات التي تعبر عن اللاأدرية وعدم المعرفة، وبعض الإيماءات التي تبدر من الآباء تجاه سلوك

²⁶ - سيمياء المسرح والدراما: مرجع سابق، ص 101.

²⁷ - سيمياء المسرح والدراما: مرجع سابق، ص 101.

أبنائهم، حينما يولونهم عنايتهم، واستجابات الأطفال، والاستجابات تجاه أناس متأملين. إنك حينما تحيي أحد الأشخاص، فإن ما تفعله يختلف من حضارة إلى أخرى، فكل حضارة تحدد ما يكون عليك أن تفعله، إن كنت ستصافح باليد، أو إن كنت ستحيي، أو إن كنت ستقوم بمعاينة الآخر، أو إن كنت ستضع يديك معا مثلما يفعل بعض المصلين، كما يختلف ما يمكنك قوله حينما يُحيّوكَ في غينيا الجديدة، وذلك بالمعاينة بأيدي مفتوحة، تمر على الفخزين والردفين وعلى منطقة الأعضاء التناسلية. المسألة إذن هي أن كل هذه الاختلافات في الإيماءات والتلويح بالأيدي تستخدم في السياق نفسه. ولكن في حضارات مختلفة، ولكن في حضارات مختلفة، ولكن هل هناك شيء مشترك بينهما؟ هل هناك - حقا - اختلافات في اختصاصات تلك الإشارات؟ إن كل هذه التّحيات يتم تأديتها بأيدي مفتوحة، فهي يمكن أن تصبح شيئا عالميا مشتركا بين كل الناس. ويمكن بالدراسة المتأنية للاختلافات الحضارية والعناصر المشتركة اكتشاف البنية الكامنة وراء تلك التنوعات⁽²⁸⁾.

وقد ركز " مايكل أرجايل " في كتابه " التوصل الجسدي " على بحث الجذور الثقافية والبيولوجية للتواصل عبر الجسد، والأغراض التي يقصد ذلك التوصل إلى تحقيقها؛ كالتعبير عن المواقف الشخصية أو تشجيع الآخر، أغير ذلك⁽²⁹⁾.

28 - انظر : Rickel Twersky "On Kinesics Analysis. A Discussion with Daniel N. stern, " The Drama Review, P. 119.

29 - راجع : Michael Argyle: Bodily Communication, Methuen, London, 1975.

المشكلة فيما يتعلق بوجهة نظر " بيردويستل " - وبعض من تابعوه - أنه يحاول إقامة تماثل مطلق مع اللغة، وهذا يجعل بحثه عرضة لشكوك اللسانيين، ولكنه يؤكد أنه ليس هناك توافق مباشر بين الوحدات الكينزية والوحدات اللسانية، بل فحسب وجود تماثل أعم بين نسقي اللغة والحركة النحويين عموماً. الفرق الأهم بين نوعي الوحدة على حد تعبير كينزياني آخر هو " دانيال ستيـرن " (DANIEL Stern) أن اللغة رمزية في الأساس، ومن ثم تعد الكلمات وحدات دالة أولاً، أما مركب أشكال الحركة " فإنه يقوم أولاً بوظيفة فيسيولوجية وعلمية. وقد أدى ربط نسق التعبير الجسدي بنسق التعبير اللغوي ببعض الباحثين إلى اقتراح أن يدرساً معاً تحت مصطلح " ما وراء اللغة (Paralanguage) (30). ولكن يعترف الباحثون في الكينزياة بتعذر وضع قائمة " بالمعجم " الإيمائي يمكننا بواسطتها إنشاء بدائل كينزية وفقاً للحاجة (31).

وهكذا - كما يقول ستيـرن - نوعان مهمان للدراسات الكينزية، أحدهما يهتم بالشخص في حد ذاته إذ يرسل الإشارات التي تتواصل مع الآخرين، والآخر يهتم بالعلاقة التفاعلية بين مرسل الإشارات ومتلقيها .

ويمكننا أن نلاحظ أن هناك ارتباطاً بين المنجز الحركي الثقافي الإنساني (التعبير الحركي من وجهة نظر الثقافة والمجتمع) والمنجز الحركي المعبر عنه إبداعياً، و مثل هذا التصور ينطبق على المسرح والرواية، فهما ليسا

³⁰ - سيمياء المسرح والدراما، المرجع السابق، ص 110 وما بعدها.

³¹ - انظر: Rickel Twersky "On Kinesics Analysis. A Discussion with

Daniel N. stern, "The Drama Review, P. 119

تخيلا منبثا عن المصدر الثقافي الاجتماعي، بل يتم الاعتماد على الشفرة الاجتماعية والثقافية في خلق الشفرة الابداعية، أو ما يسميه " أمبرتو إيكو Amberto Ecco " " التشفير الثانوي " (32).

وعلى هذا تكون بعض المبالغات المجازية في الرواية - بل كل ما يبتعد عن المعتاد في الواقع- نوعا من التشفير الثانوي الروائي الذي يتوطأ عليه المبدع والمتلقي، ويتطلب من المتلقي إعادة قراءته وتأويله. ولاشك في أن الروائيين يتفاوتون في الاهتمام بتلك الإيماءات التي تظهر في سرد الأحداث خصوصا كما تظهر أثناء الحوار، وهكذا كله يحتاج من القارئ إلى انتباه دقيق ليتمكن من تلقي الخطاب جيدا.

إن تفسير التعبيرات الجسدية لا يدعي أن عناك معنى واحدا مطلقا لكل تعبير جسدي، بل يجب بحث كل تعبير داخل سياقه الخاص، على أن يقترن ذلك بملاحظة التعبيرات الجسدية الأخرى المصاحبة، إذ تتنوع معاني أية رسالة تبعا لحشد من العناصر، منها - على سبيل المثال - السياق الثقافي والبيئي، والعلاقة بين أطراف عملية التواصل، وقوة الرسالة وأمدها، وما إذا كان قد تم تلقيها بوصفها متعمدة أو غير متعمدة إلى غير ذلك (33).

فإغماض العين قد يعني سياق إلغاء لآخر، لكنه في سياق اقتراب حميم قد يعني احتواء لآخر بعد أن تم جمعه وتكثيفه والامتلاء به. ومن ناحية أخرى فإن هناك تعبيرات ذات معنى خاص لمرسلها، قد يرسلها إلى نفسه دون غيره، مثل البكاء في غير حضرة الآخرين.

³² - كير إيلام: سيميائيات المسرح والدراما، مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.

³³ - انظر: mark Knapp: Nonverbal Communication in Human Interaction, Halt, Rinhard and Wiston New York. 2nd (ed), 1978, P. 254.

وهناك تعبيرات قد لا يفهما سوى متلق بعينه مثل القبلة بين المحبين، دون حضور آخرين، فقد تكون اعتذارا أو إغراء أو اعترافا بشيء أو وعدا.... الخ.

ويلتفت " شتيرن " إلى توالي الحركات والسكنات في الكلام فيبين أنه عندما يتكلم الناس في لحظة ما من المحادثة قد يغير أي شخص موقفه (مكانه) أو يغير جملة أو يقوم بحركة ما ويتبعه الآخرون؛ هذا التغير غالبا ما يدل على تغيير في طبيعة الأحداث الجارية بين المتحاورين أو المتحدثين فهي ليست مجرد حركة، ولكنها حركة حدثت في سياق جعل لها معنى مميذا جدا، هذا المعنى غير منصوص عليه، ولكنه إشارة حددت آخر نوع من الأحداث وبدء نوع آخر، فاصل أو حاجز بين نوعين من التبادل. ولدراسة هذا النوع من التبادل لا يكون التركيز على هيئة أية حركة بعينها ولكن- لي أقصى تقدير - يكون التركيز على التغيير في الحركة والوقفة، والتعبير، والترتيبات، وأي نوع من التواصل تحدثه هذه التغيرات في سريان الأحداث بين اثنين أو أكثر من الناس⁽³⁴⁾.

إن الجسد المجازية، يشكل مع الكتابة تواطؤا أساسيا أدرك القدماء خطورته فصارعوه، وإن لم يصرعوه⁽³⁵⁾، إلا أنهم فتشوا جيوبه الداخلية التي تحتضن المخبوء ومن إحدى هذه الجيوب انبهروا بغمزة عين شبقية أنبأتهم بأنهم دخلوا في لعبة الهيمنة، هيمنة لغة الجسد والسلطة.

Rikél Twersky op. cit P.115

³⁴: انظر :

³⁵: فريد الزاهي: الحكاية والتمثيل - دراسات في السرد الروائي والقصصي - إفريقيا الشرق 1999م، ص 45.

- فاكهة المقال وسلال الخاتمة -

إن الإيديولوجية الجنساوية " L'ideologie Sexiste " في المشهد الروائي تتوسل بالجسد أفقا سرديا، كونه في بعده الايروسى كما يرى سعيد بنكراد هو البؤرة التي تكون عالم النص الروائي، كما أنه الشكل الذي تنطلق منه وتلتقي عنده كل الأشكال، وهو أيضا وأساسا الشكل القار القابل لاستيعاب سلسلة من الأفعال والأوصاف التي تحيل بهذا الشكل أو ذاك على قيمة (قيم) هي الأساس الذي تقوم عليه ممكنات الكون الدلالي وسبل تحققه(36).

يعتبر الجسد في العمل الفني ركيزتا من أكثر الركائز الجمالية تعبيراً عن التشكلات الدلالية وتأسيساً لشعرية الخطاب(37)، الحبلى بعراجين الشهوة الحمراء التي تتغيا الأماكن الأكثر إثارة لتأجيج الرغبة في قراءة الفعل الإنسانى عبر (مقتضيات الجسد الحسية) بحيث يكون مادة السرد الأولى والأخيرة.

تأثير المتون الروائية بموضوعة الجسد، يعزى إلى حضوره المكتف في حياة الناس، في الأحلام، وفي السياسة، والأخلاق، والسلطة، كل الأمور تتمحور حول الجسد ولا شيء يوجد خارج ما تثيره الكلمات والأوضاع أو ترسمه الأفعال من صور " للذة " لا تنتهي عند نقطة بعينها (38).

لكن ماذا ينتج عن غياب الجسد؟

36 : سعيد بنكراد: النص السردي - نحو سيميائيات للإيديولوجيا - الطبعة الأولى 1996

- دار الأمان - الرباط المغرب: ص 111.

37 : المسألة: مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين العدد الأول، ربيع 1991، ص: 125.

38 : النص السردي: مرجع سابق، ص 111.

يذهب سعيد بنكراد إلى أن غياب الجسد ينتج عنه غياب الرواية لسببين اثنين: - يكمن الأول في أنه إذا كان بالإمكان التخلص من بعض الشخصيات الرجالية دون الإخلال ببناء النص، فإنه يستحيل فعل ذلك مع شخصية نسائية واحدة دون أن تنهار الرواية.

ويعود الثاني إلى أن الخطاب في كليته مؤسس على " دورة كلامية " تقود من " أنا " مذكرة تؤسس على مهام انطلاقا من أنت " مؤنثة، إن أي إخلال بهذا " النظام التلغفي " هو إخلال بنظام القيم المبثوثة في النص (39).

من هنا كان الجسد موضوعا للسرد، وموضوعا للوصف وموضوعا للاستذكار والاستباق والاستيهام، وموضوعا للغة أيضا، فمنه تخلق لنفسها تركيبا جديدا لا يدرك إلا في علاقته بما يتولد عن هذا الجسد من " هزات " و " إيماءات " و " آهات " حيث يصبح للكلمات قضيب وفروج.

وهذا ما نعاينه في المثل الروائية التي تؤنث بهذا موضوعة حيث تضرب صفحا عن تركيبها المألوف كي تتزيا بتركيب يخلط بين اللفظي والبدني، ليقراً اللفظي انطلاقاً من التركيب الذي يقدمه البدني (40).

إن الجسد كنص مغلق ينطوي على سمات أو بنيات تخيلية ذات بعد مجازي واستعاري بحيث تكون وثيقة الصلة باللغة، أما الجسد كنص من خلال علاقته بالواقع والحياة والتاريخ فإنه ينطوي أو يتضمن على بنيات أنثروبولوجية لا تنفك تؤثر في سلوكيات المجتمع، وعلى علاقاته الداخلية (اللغة) والخارجية (الواقع) وقد تتعاضد بنيات الداخل والخارج لتفضي في

39 : المرجع السابق: ص 112.

40 : المرجع نفسه: ص 113.

النهاية إلى بنية جسدية قائمة باعتبارها أبرز العوامل المؤثرة في إنتاج المعنى (41).

في المحصلة على المتلقي الحضيف أن يميز بين جسد الاستعارات واستعارات الجسد وهو ينهب تضاريس المتن الروائي حتى يقف على مواطن الفتنة التي قال عنها الجاحظ العظيم في حيوانه " أعلم أن فتنة القول أشد من فتنة المال والنساء "

⁴¹ : محمد الحرز: شعرية الكتابة والجسد، دراسات حول الوعي الشعري والنقدي مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى، 2005- ص 14.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1- المصادر:

* أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري:
لسان العرب - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - دار صادر - الطبعة
السادسة 1417 هـ - 1997م بيروت، لبنان.

2- المراجع:

- 1- د. محمود أمهد: تافن التشكيلي المعاصر - التصوير 1870 م - 1970م
- لبنان 1981م.
- 2- ارفن جميل شك: الاستشراق جنسيا، تذكير الأنا، تانيث الآخر: ترجمة،
عدنان حسن اتحاد الكتاب العرب دمشق سورية.
- 3- علي زيعور: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في
الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى عام 1991.
- 4- جلال الدين سعيد: فلسفة الجسد، دار أمية للنشر، تونس، الطبعة الأولى
عام 1993.
- 5- عبد السلام بنعبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الطبعة
الأولى 1994، الدار البيضاء المغرب.
- 6- دافيد لوبروتون: انثروبولوجيا الجسد والحدثة، ترجمة محمد عرب
صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الأولى،
1993.
- 7- جورج سافونا، وإلين ستون: المسرح والعلامات، ترجمة: سباعي السيد،
س، مسرح I عدد 13 أكاديمية الفنون - الطبعة الأولى.

- 8- محمد الحرز: شعرية الكتابة والجسد- دراسات حول الوعي الشعري والنقدي، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى عام 2005، بيروت لبنان.
- 9- سعيد بنكراد: النص السردي نحو سيميائيات للإيديولوجيا، الطبعة الأولى 1996، دار الأمان الرباط، المغرب.

3- المجالات والدوريات:

- 1- الحياة الثقافية (ندوة الجسد والفلسفة) عدد 66 - 1993م.
- 2- إلهام سليم: مفهوم الجسد عند أونوري دي بلزاك: قراءة في رواية الجلد المسحور، مجلة الدراسات العربية، بيروت عدد 07 مايو 1990.
- 3- معجب الزهواني: تمثلات الجسد في نماذج من الرواية العربية المعاصرة، مجلة فصول، مج 16، عدد 04 ربيع. 1998.
- 4- أحمد زايد: الجسد والمجتمع، استكشافات في النظرية الاجتماعية، مجلة ابداع عدد 09، سبتمبر. 1997.
- 5- المساءلة: مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين العدد الأول، ربيع 1991.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Jonathan Millere: The Body In question, Jonathan cape London 1978.
- 2- Roye Boyne: The art of the Body In the discourse of posmodernity in mike, Featherstone and others ed the Body, sage publications London 1991.
- 3- Donne Wetton. ed Body and Flesh, Blak Well. OXFORD 1998.
- 4- ED Ward T. halli: The silent language. Fawcett wald library. New York 1959.
- 5- Ricket Twersky "on Kinesics Analysis, a Discussion with DANIEL. N. Sttern. The Drama Review. "
- 6- Michael Argyle: Bodily Communication, Methuen London 1975.
- 7- Mark. Knapp: Now Verbal communication in human Iteration Halt, Rinhard and wiston new-York 2nd (ed) 1978.